الإيمان[1]

بمناسبة اجتماعنا في قاعة القديس أثناسيوس الرسولي للمرة الأولى في اجتماعاتنا الروحية، نود أن نتأمل في إحدى الفضائل التي كانت للقديس أثناسيوس، وكانت من فضائله البارزة.

فمن فضائله: الإيمان بالفكرة... إنه إنسان آمن بمبدأ وتشبع به، وملك عليه هذا المبدأ كل قلبه وتفكيره وإرادته، وأعطاه هذا الإيمان قوة جبّارة استطاع بها أن يشق طريقه في الحياة لا يبالي بشيء.

لقد قامت الدنيا عليه فلم يتزعزع، لأنه كان مؤمنًا بالمبدأ الروحي الذي ملك قلبه وتفكيره وإرادته.

قام عليه الأباطرة والقياصرة والمجامع... وقامت عليه قوى الشر، ودبرت المؤامرات والدسائس والاتهامات الباطلة، واستطاع أن يصمد... وكان صموده لأنه كان مؤمنًا بمبدأ من المبادئ.

إن سر قوة القديس أثناسيوس الرسولي يكمن في إيمانه، والإيمان يمكن أن يصنع الأعاجيب مهما كانت العقبات.

إن المهم في الإيمان... هل هناك إيمان أم لا؟

وسأضرب لكم أمثلة على هذا الإيمان.

لقد سار السيد المسيح على الماء ووصل إلى السفينة، وقال له بطرس: يا رب أريد أن أسير معك... فأجابه المسيح: "تعال". وبهذا الإيمان القوي مشى بطرس على الماء ولم يخف، لأنه مؤمنًا بأن يده في يد المسيح، ولكن عندما بدأ إيمانه يضعف أخذ يغرق.

وخذوا مثلًا آخر كلكم تعرفونه: إن رواد الفضاء يؤمنون إيمانًا أكيدًا بأن هناك منطقة انعدام وزن، ليس فيها جاذبية، ونتيجة لهذا الإيمان بمنطقة انعدام الوزن، نجد أحدهم يخرج من سفينة الفضاء ليسير دون أن يسقط.

إنها مسألة إيمان إذًا، إنها قوة الإيمان التي تجعل الإنسان يسير حتى على الهواء وليس على الماء!... حقيقي أن العلم يقول إن هناك منطقة ينعدم فيها الوزن، ولكنها قوة الإيمان التي جعلت رواد الفضاء يسيرون في الهواء، وأعطتهم عزيمة جبارة.

إن الإيمان يُعطي قوة، وعدم الإيمان يعطي خوفًا، وفي الكتاب المقدس نجد أنه بالإيمان استطاع موسى أن يمشي في البحر الأحمر ولو لم يكن له هذا الإيمان لما أمكنه ذلك.

إن الإيمان يعطي قوة عجيبة تجعل الإنسان يدخل في الصعوبات والعقبات بقلب قوي، لا يخاف، قلب مؤمن بالنتيجة التي سيصل إليها.

خذوا مثلًا نوح، عندما كان في الفلك، وصحب معه الأسود والفهود والوحوش ...اثنين اثنين، فلولا أنه مؤمن بأن هذه الوحوش لن تؤذيه ما كان قد أخذها معه، إن نوح لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل إلا بالإيمان القوي... الإيمان بأن الله سيحفظه في الفلك... إيمان بأن الوحوش لن تسبب له أذى.

إنه الإيمان القوي الذي يجعل الإنسان لا يخاف أو يرتعش أو يقيم وزنًا للصعوبات والعقبات.

يستطيع الإنسان دائمًا، عندما يكون لديه إيمان، أن يعمل ما لا يستطيعه غيره.

إن الفرق بين أشجع الناس، وأخوف الناس، هو الإيمان... الشخص الجريء لديه إيمان بأنه لن يحدث له شيء، أما الجبان فعكس ذلك.

يستطيع كل إنسان أن ينجح في عملٍ ما إذا آمن إيمانًا قويًا بهذا العمل... والذين نجحوا آمنوا بعملهم وساروا في طريق العمل بإيمان.

في كل الحالات لابد من الإيمان... فالمريض الذي لديه الإيمان ينجو، ومن ليس لديه الإيمان ينهار ويضعف.

ربما كانت ابتسامة لمريض تعطيه الأمل فيقوّي إيمانه ويُشفى... ربما عبارة من حبيب أو كاهن تعطي قوة إيمان للإنسان يحتمل بها المرض فيشفى.

وحتى في العدوى... إن من يؤمن بعدم العدوى يذهبون إلى أشد الناس مرضًا ويأخذونهم في أحضانهم ولا يخافون من العدوى.

الكهنة لا يؤمنون إطلاقًا بالعدوى، ولديهم إيمان عجيب في ذلك، مهما كانت حالة المريض.

ومن الـذين لـديهم إيمان كبير، ولا تهمّهم العدوى، الأمهات... إن الأم تنام بجوار ابنها المريض ولا تتركه، إنها لا تؤمن بالعدوى، إنها تؤمن بالحب... وبهذا الشكل لا تخاف إطلاقًا.

يعوز الناس في حياتنا الإيمان... يعوز الناس أن يؤمنوا بأنه لا خوف ولا ضرر... أن يؤمنوا بأنه لا تعب... وهكذا بالإيمان يزول الخوف.

تأملوا عمال البناء في العمارات العالية... إن هؤلاء لا يخافون من السـقوط، ولو قام إنسان آخر بهذا العمل فإنه يخاف... إنه يخشى الرياح والعواصف والجاذبية فيدق قلبه... إنه عدم الإيمان.

إن الفرق بين أقوى إنسان، وأضعف إنسان هو الإيمان... هل عندك إيمان أم لا...؟

الإيمان هو أنك مؤمن وواثق في أعماقك بأنه لن يحدث لك شـيء في التجارب والضـيقات، نجد أن التجارب تهز البعض، بينما لا تؤثر في البعض الآخر... إن من لا تهزه التجارب لديه إيمان بأنه لن يحدث له شيء، بينما من هزتهم التجارب ليس لديهم هذا الإيمان.

إنسـان تـأتي له تجربـة فيقول إنها سـتنتهي بخير... هـذا الإنسان شـجاع لا يخاف، بينما إنسان آخر تأتي له التجربـة فيتخيل مخاوف لا وجود لها.

يعوز الناس في الحياة الكثير من الإيمان حتى يستطيعوا أن يعيشوا.

ينجح الإنسان الذي يؤمن بفكرة وتسيطر هذه الفكرة على أعماقه فتعطيه قوة شديدة وتدفعه نحو الخير.

خـذوا مثلًا المبشـرين الـذين ذهبوا إلى بلاـد في مجاهـل أفريقيـا، وإلى بلاـد بعيـدة فيها. ظروفها قاسـية جـدًا من حيث طبيعتها ومناخها، ولكن لإيمانهم بالفكرة وخيرية العمل الذي يقومون به ذهبوا وعاشوا وبشّروا باسم المسيح فيها.

إنهم يؤمنون بأهمية العمل وخطورته، إنهم يؤمنون بأن هناك نفوسًا لابد أن يأتوا بها إلى الله وبتأسـيس مملكة الله وسط هؤلاء الوثنيين.

لقد أعطى الإيمان لهم قوة... لم تهمهم الغربة أو الوحوش أو قسوة المناخ.

إنهم آمنوا بالفكرة تغلي في قلوبهم كالنار... وآخرون مهما شجعتهم على القيام بمثل هذا العمل فلا فائدة لأنهم لا يؤمنون.

إنه يعوزنا الإيمان... الإيمان بالفكرة... الإيمان الذي يغلي داخل القلب... الإيمان الذي يؤمن بملكوت الله.

كيف بشـر الرسل بالمسـيح، إنهم مؤمنون بالملكوت ورسالته، ولابد أن يذهبوا ويبشروا ويشهدوا لله، لقد ذهبوا إلى بلاد ليس فيها أحد وقاموا بالعمل.

ليس فقـط المبشـرون بـل أيضًا المصـلحون في كـل مكان... ما الـذي دفع المصـلحين إلى الإصـلاح؟ إنه الإيمان بالفكرة والجهاد في سبيل هذه الفكرة التي يؤمنون بها.

"غانـدي" الـذي كان يؤمن بالسـلام وعـدم اسـتخدام العنف... لقـد آمن بفكرته واسـتطاع أن يحرر الهند بها، وأوجد جيلًا من الروحانيين الذين يؤمنون بعدم العنف.

أن غاندي يؤمن بفكرته وينفذها ويعلم جيلًا مهما قابل من عقبات... لقد قاوم غاندي الاستعمار الانجليزي، وطالب بحرية الهنود، إلى أن استطاع الحصول على هذه الحرية، وبعد ذلك طالب بتحرير المنبوذين في الهند، قائلًا: إنه لا يرضى بالظلم، وكان يصوم طويلًا لكي يحرر هؤلاء المنبوذين، وصام أيضًا من أجل المسـلمين ونادى بضـرورة أن تعيش الهند في سـلام ومحبة، وفي إحدى المرات صام حتى قارب الموت.

هذا هو الإنسان المؤمن بالمبدأ بكل ثبات وصمود... ينشر مبدأه الذي يؤمن به ويكوّن جيلًا من الصالحين.

هـذا هـو الإنسـان الـذي لـديه فكرة فيصـارع مـن أجلهـا لكي تثبت وتنتشـر... وكـل المصـلحين يؤمنـون بفكرة وينفـذونها وينشـرونها.

ما الفرق بين من يعمل ومن لا يعمل؟ ... الفرق هو الإيمان بفكرة.

حتى في الأمور الروحية... خذوا الصلاة مثلًا، هناك إنسان هو رجُل صلاة يعيش بالصلاة، وهناك آخر لا ينجح في عمل الصلاة.

ما الفرق بين الاثنين؟ ... الفرق هو في إيمان شـخص بالصلاة... إنك تنجح في الصلاة إذا كنت تؤمن بالصلاة، وأنها الحل الوحيد لحياتك.

هناك من تأتي له مشكلة فيعالجها بذكائه وقدراته وخبراته، ثم الصلاة بعد ذلك... هنا الصلاة بغير إيمان.

وشـخص آخر يحل مشـكلته بقدراته والصـلاة معًا... وشخص ثالث يقول إنه لا حل لمشـكلته إلا بالصلاة، ويؤمن بالصلاة إيمانًا جبارًا... إنه يصلي من عمق أعماقه، شاعرًا بأن موضوعه يحل بالصلاة.

إن مشاكلنا لا تحلها الصلاة، لأننا لا نؤمن إيمانًا أكيدًا بالصلاة... هل نشعر بأن الصلاة هي الحل الوحيد لمشاكلنا...؟

إن الذين نبغوا في الصـلاة، واسـتجاب الله لهم، كانوا يؤمنون بفاعلية الصـلاة، ويشـعرون وهم يصلون بأنهم استودعوا أمورهم في يد الله الحنون.

هل نؤمن بالفضائل الأخرى إيمانًا أكيدًا... وهل لها الثبات والرسوخ في قلوبنا؟

إنك على قدر إيمانك بالصـلاة تنجح في الصـلاة... وعلى قدر إيمانك بالله تنجح في علاقتك بالله، وفي أي فكرة على قدر إيمانك تنجح.

إن علاقتنا بأصـدقائنا تصـبح قويـة إذا كان لـدينا إيمان أكيـد بهذه العلاقة، ومن يؤمن بالمحبة، فإن العواصف وقوى الشـيطان والمعوقات لا تقوى عليهم، لأن هناك إيمانًا قويًا بهذه المحبة والعلاقة والصداقة.

ما الفرق بين الشخص الصالح والشخص الفاسد...؟

إن الشـخص الصالـح يؤمن بأهميـة الحيـاة الأبديـة بالنسـبة إليه... إنه يؤمن بغربته على الأرض، وأهميـة الحياة الأخرى والإعـداد لهـا... وصـدقوني لو كنـا نؤمن الإيمان كله في عمقه بأهميـة أبـديتنا وحياتنا الأخرى، ما كنا نخطئ في يوم من الأيام.

إننا نخطئ لأن الأبدية مسألة ثانوية بالنسبة إلينا.

لقـد نجـح آباؤنـا القـديسون في الحيـاة الروحيـة لأـنهم آمنوا بالحيـاة الأبديـة... إذ "مَـاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟".

لقد آمنوا بالحياة الأبدية، واستطاعوا أن يسلكوا سلوكًا قويًا في حياتهم مع الله.

لمـاذا ننجـح في حياتنا الروحيـة ونفشـل مرة أخرى؟ ... إن فشـلنا يرجع إلى أننا لم نؤمن إيمانًا قويًا بعـد بأهميـة الأبـدية وحياتنا الأخرى... إننا نؤمن بحياتنا على الأرض.

إن الذي يؤمن بالأبدية إيمانًا راسخًا. لا يخطئ.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة وطني بتاريخ 3-6-1973م